المحاضرة06:الاتجاه الثوري في المسرح الجزائري.

تمهيد:

إن العلاقة بين الفن والثورة متداخلة ومتشابكة، فقد يسبق الفن الثورة ويمد لها ويحرض عليها ويسعى على خلقها من خلال الدعوة إلى قيامها، وقد تسبق الثورة الفن ومنه المسرح، فتمده من حوادثها ووحيها وقيمها ما يجعله يغرف من ينبوعها، وقد يلتحم الفن بالثورة فيواكبها ويكون صوتها وصداها، والدارس للمسرح الجزائري منذ بوادره الأولى في العشرينيات يسجل تفاعله مع تطور الحركة الوطنية، وتشكله بسماتها وامتزاجه بتياراتها وطروحاتها السياسية، فالمسرح يشخص الثورة ويشعلها كما أنها تفتح مجال الإبداع والخلق للمسرحي،[i] ولقد بسطت الثورة التحريرية المظفرة ظلالها على الأقلام المسرحية الجزائرية المبدعة، فأنتجت اتجاها مسرحيا ثوريا يستمد عبقريته وجماليته من أحداث ومعجزات هذه الثورة المباركة.

أولا - النص الثوري النضالي.

تحدد العمل المسرحي إبان الثورة التحريرية بالمشاركة في الثورة والعمل على إبرازه بأعمال فنية يكون منطلقها الكفاح ومقاومة الاستعمار، حتى إن عبد الحلم رايس يقول في هذا الصدد «إن المسرح بالنسبة لنا يمثل إطارا للكفاح، لأن المسرح الجزائري مسرح ملتزم، يعمل في صميم الثورة، وإننا نمثل مسرحا شعبيا يعيش في حالة حرب ومن الطبيعي بالنسبة لنا نحن كفنانين أن نفكر وأن نفعل كمناضلين، وفي هذه المرحلة من الكفاح الوطني، فإن مسرحنا الواقعي يجب أن يكون مسرح جبهة التحرير الوطني، إننا نترجم عبره واقع الشعب الجزائري»[ii].

فالإيمان بالثورة أعطى دفعا كبيرا لكل العاملين بالمسرح إلى التأليف والكتابة في موضوعات نضالية تصور الشعب الجزائري البطل، فأصبحت الثورة بذلك المحور الأساسي الذي التف حوله كل الكتاب المسرحيين، وكل الأعمال المسرحية كانت ذات صيغة نضالية هدفها نشر الوعي بين الأهالي والدعوة لحماية الثورة ورعايتها والالتفاف حولها،[iii] لأنها الأمل الوحيد الذي يحقق ذواتهم وإبداعاتهم وأفكارهم.

لقد منحت الثورة المسرح زادا ثوريا جديدا، حيث عم جو الثورة كافة النتاج المسرحي فاستمدوا منها موضوعاتهم، وحاولوا رفع مستواها الفني حتى تبلغ في صفائها، وتتماشى وجوهرها الأسمى، وظل المسرح الجزائري «يساير الظروف والمراحل الحرجة التي تمر بها البلاد، وكان لكل ظرف عمل مسرحي يناسب تحدي الحواجز والعراقيل، ويعود الفضل في ذلك إلى أولئك الذين عرفوا كيف يحولون هذا الفن إلى سلاح له أهميته بجانب سلاح النار»[iv].

والمسرح بأسلوبه النضالي واكب الثورة مع اندلاعها، فكتب عدد من المؤلفين نصوصا مسرحية خارج الوطن (تونس)، لأنهم كانوا إما طلبة أو لاجئين، أو أعضاء في الفرقة الفنية لجبهة التحرير الوطني، ومسرحية "مصرع الطغاة" لعبد الله ركيبي واحدة من أهم المسرحيات التي تتميز بأسلوبها وموضوعها النضالي، ففكرتها الأساسية ترتكز على تصوير نضال البطل "البشير" الرجل الثوري الملتزم بقضايا بلاده وتحريرها من الاستعمار الفرنسي ومحاربة العملاء والخونة وإقناع المنحرفين والمتقاعسين بالانضمام إلى الثورة التحريرية وأداء الواجب الوطني المقدس.

ركز المؤلف على فئة الشباب الجزائري اليائس من الأوضاع والتائه في الملاهي والملذات، فاختار الأماكن التي تجري فيها الأحداث، ليكون بيت "البشير" هو المنطلق والمركز الأساسي، حيث يجتمع الرفقاء والثوار بمساعدة أخته "رحمة" وخطيبها الدكتور (أحمد)،[v] ليقرروا تفجير الثورة ليلة أول نوفمبر ويفعلون ذلك ويربكون الاستعمار الذي واجه الأمر بحملات الاعتقال والتعذيب لكل الفئات دون استثناء.

والمسرحية على ما تحتويه من ضعف ظاهر من حيث الانفعال ورد الفعل وعدم التأني في التعبير عن المواقف والمشاعر،[vi] لها خصوصيتها وتميزها لكونها نصا مسرحيا نضاليا خلد الثورة، وحفظ للأجيال صورا حية عنها وعن رجالاتها، رغم صدورها عن كاتب فتي في بداية طريقه الإبداعي، وهي أول مسرحية تكتب وتطبع في هذا الاتجاه النضالي باللغة العربية الفصحى، وأحداثها تتلخص في النقاط الآتية:[vii]

أ- الوعي النضالي لدى الشعب الجزائري في محاربة الاستعمار الفرنسي، ويتجلى ذلك في إدراك بطل المسرحية "البشير" لدوره النضالي.

ب- تعدد وجهات النظر نحو سبل محاربة العدو والطرق النضالية، وخاصة لدى الشباب البائس من الدعوات الحزبية المتباينة فيما بينها.

ج- الرمز التحرري والانعتاق والعلاقة بين حب الوطن وحب التضحية من أجل تحريره.

د- هزيمة الاستدمار الفرنسي وضعفه في الرد على المجاهدين وثورتهم.

وفي هذا المجال أيضا كتب أبو العيد دودو مسرحيته "التراب" سنة 1954م وهي مسرحية أدبية نضالية اطلع عليها أبو القاسم سعد الله قبل طبعها، وذكرها بقوله: «كان الدكتور أبو العيد دودو قد أرسل إلي من فيينا مخطوطة مسرحية (التراب) للإطلاع عليها وإبداء رأي فيها وكنت عندئذ في مدينة أوكلير بأمريكا، وقد أرسلت إليه رأيي في المسرحية في رسالة بتاريخ 15 نوفمبر 1966، وبعد عودتي إلى الجزائر طلبت مني الشركة الوطنية للنشر والتوزيع إعطاء رأيي في نفس المسرحية التي كنت قد تلقيتها من الدكتور دودو الذي كان ما يزال في فيينا فكتبت إليها تقريرا عنها مؤرخا في 14 مايو 1968»[viii].

وتحاول هذه المسرحية أن تتعرض لظروف الثورة والإرهاصات التي أدت إلى اندلاعها، وأحداثها تدور حول قضية اجتماعية هي "الزواج"، بطلتها أسرة تتكون من أختين "نوارة وسليمة" و"حميد" ابن سليمة و"فضيلة" ابنة نوارة، وسعيد الذي أراد الزواج من فضيلة، ويكمن الصراع في تنافس "حميد" و"سعيد" على حب فضيلة، والمسرحية في الحقيقة لم تتخذ من الثورة وأحداثها إلا ميدانا لحديث الهوى والغرام من بداية المسرحية إلى نهايتها.

وجاء النضال عرضا، اختارته الشخصيات قدرا محتوما عليها، فالجهاد لم يكن هدفها وغرضها،[ix] وهذا ما جعل أبو القاسم سعد الله يورد ملاحظات حول هذا العمل أجملها في النقاط الآتية:

أ- طول الحوار بين شخصيتين أحيانا في صورة سؤال وجواب أو نحو ذلك.

ب- قلة اختلاف المناظر، مما احدث رتابة في الحوار.

ج- نقص في وصف الشخصيات وعلاقتهم ببعضهم.

ومع ذلك تبقى مسرحية "التراب" عمل أدبي فني ناضج، ذات أسلوب جذاب، فكرتها عميقة تدور حول الصراع بين الوطنية والحب والتضحية، وشخصياتها تمثل قطاعات مختلفة من حياة الإنسان الجزائري خاصة وتحتوي على حوار فلسفي هادف،[x]ولقد أدت دورها الأدبي والسياسي والثوري في نفوس الشباب الجزائري الشغوف إلى كل ما هو وطني.

وما يلفت النظر فيها عنوانها "التراب"، فالرمز هنا هي الأرض والوطن، ويرمز التراب إلى أقصى درجات حب الوطن والتمسك بتربته، وهو يعني «الأرض التي ولد فيها الإنسان الجزائري، فأحس وكأنه مربوط إليها بحبال يستعصي على الزمان قطعها»[xi]، وبالتالي فإن هدف الكاتب هو إظهار عاطفة حب الوطن والتعلق به، والتضحية من أجله بكل نفيس وعزيز.

ثانيا- النص الثوري التسجيلي والإعلامي.

يعد الفن المسرحي وسيلة تعبيرية هامة، يحمل رسالة اجتماعية تعكس هموم المجتمعات وقضاياها، والمسرح التسجيلي برز خلال التيارات التحررية التي ظهرت في القرن العشرين، ويعد امتدادا طبيعيا من حيث الاهتمام بقضايا الأمة والوطن، وهو أحد التعريفات للمسرح السياسي الذي وجد إبان الثورة التحريرية مجالا رحبا في الجزائر.

ولقد أفرزت ثورة نوفمبر 1954م مسرحا خاصا قريبا من المسرح التسجيلي الوثائقي لكنه يختلف عنه بأنه يعطي صورا حية عن الثورة في مختلف مراحلها الجهادية فهو مسرح نضالي، يعبر عن الأزمات النفسية التي يحياها الثوار حين مواجهة العدو، ثم إنه تصوير للوقائع الحربية والكمائن والهجمات والقتل، وهو كذلك تسجيل حي لصور التعذيب والترهيب والتنكيل من قبل العدو ضد الأهالي والسكان.[xii]

وعليه فإن الواقعية كانت منهج مسرح الثورة الذي عبر بحق عن ثورة نوفمبر المجيدة، سواء في الجبال أو في المدن ولقد تناول رجل مسرح الثورة "عبد الحليم رايس" الوقائع اليومية التي كانت تعيشها الثورة الجزائرية وعكسها بلغة شعبية سجلتها أنامله بصدق وعفوية في مسرحيتيه "أبناء القصبة" و"دم الأحرار"، فالأولى مسرحية بالعامية الجزائرية وهي ثورية واقعية، يعرض المؤلف شخصياتها في الفصل الأول منها، ويحدد المكان الوحيد الذي تجري فيه الأحداث، وهو دار عربية (الدويرة) في القصبة بالعاصمة، وأما زمانها فهو: مساء صيف.

وأما شخصيات "أبناء القصبة" فهي الأم، والأب "حمدان"، والكنة "مريم" والابن الأصغر "حميد"، والابن الأوسط "عمر"، و"توفيق" الابن الأكبر، وهي كما يقول المؤلف نفسه: «ليست مسرحية جاءت لتلبية طلب ما أو هي مسرحية دعائية، إنما هي مسرحية كتبت نفسها... وأحداث المسرحية وقعت بالفعل في حي القصبة بالعاصمة سنة 1956 وبداية 1957، ويمكن أن تكون قد جرت في مدن الجزائر برمتها»[xiii].

والواقع إن العاصمة شهدت في هذه الفترة "معركة الجزائر" الشهيرة التي قادها مجاهدون أشاوس في حي القصبة أمثال: العربي بن مهيدي، ياسف سعدي، علي لابوانت، حسيبة بن بوعلي، جميلة بوحيرد... وغيرهم، وهي معركة مشهورة في تاريخ الثورة الجزائرية أسالت الحبر الكثير من جانب الجزائريين والفرنسيين، ولذلك كانت

المسرحية صفحة تاريخية تسجيلية ناصعة في تاريخ العائلة الجزائرية بهذا الحي الذي عانى في أواخر 1956 وبداية 1957 من القمع والاضطهاد الشيء الكثير.

ولقد تناولت المسرحية بالإضافة إلى ما سبق شخصية المجاهد ودوره المسؤول وفعل الجهاد على أرض الميدان في مشاهد حية، وكفاح المرأة الجزائرية في الثورة،[xiv] فكانت تعبيرا حيا عن واقع حي من أحياء الجزائر العاصمة ليكون نموذجا للثورة في المدن الجزائرية، وقدمت صورة عن الروح الجماعية التي سادت هذه المرحلة من تاريخ الجزائري الثوري ضد القوات الاستدمارية.

وتصنف مسرحية "دم الأحرار" لعبد الحليم رايس ضمن المسرح التسجيلي والإعلامي، لأنها مسرحية تسجيلية لأحداث الثورة التي وقعت في المدن الجزائرية وجبالها، ولقد عرضت يوم 29 سبتمبر 1961 بالمسرح البلدي بتونس، مصورة حياة الفدائيين ويومياتهم في المدن وداخل أغوار الجبال، مؤلفة من ثلاثة فصول، تجري أحداث الفصل الأول في ثلاثة أماكن، مغارة في الجبل حيث سكن فيلق من المجاهدين، ومشتى من مشتات الجزائر، ومنزل حارس الغابة "فرانسوا" الذي يأوي الأبطال الثلاثة "مراد ورزقي ومريم".

وشخصية "فرانسوا" هي الشخصية المحورية في المسرحية، لأن كل الأحداث الفدائية تدور في بيته، وهو المشرف على هذه الأحداث من الفصل الأول إلى الأخير،[xv] الذي ينتهي بانتصار الفدائيين الجزائريين بعد أن غنموا الأسلحة وأخذوا عددا من الأسرى، وبذلك استطاعت المسرحية أن تغوص في نفوس الفدائيين وأن تكشف عن سرائرهم، وإصرارهم على مقاومة العدو ومواجهته بشتى الوسائل والطرق، وكشفت إيمانهم القوي بقضيتهم العادلة والجهاد حتى النصر.

وبهذا فإن المسرح الثوري إبان الحرب، كان مسرحا واقعيا مناضلا وسفيرا للجزائر في كل الأقطار، حيث سعى إلى تقديم هوية الجزائر الثقافية المتميزة، وهو امتداد لتطور المسرح الجزائر ابتداء من عام 1926م، لقد رسم طريقه المتمثل في الواقعية، ولكي يحيا كان عليه أن يحقق قفزات ليتخطى اجراءات المراقبة، ويلقى القبول من لدن الجمهور.[xvi] والمسرح بكل اتجاهاته ثوري هدفه التغيير، ويسعى دائما إلى الثورة على الأوضاع والمفاهيم والتقاليد البالية، ليشق طريقه نحو أفكار وأساليب ومبادئ مشرقة لتحرير الإنسان من العبودية والاستغلال.